حارة حريك تعبق برائحة «زهر الليمون»

تغريد السميري

«كانت عائلتي من اواخر العائلات التي تهجرت من حارة حريك في ضاحية بيروت الجنوبية عام ١٩٨٣ مع الحرب الاهلية اللبنانية. بعدها لجأ المهجرون من الجنوب والبقاع الى حارة حريك التي تحولت الى مربع امني مع سيطرة حزب الله عليها».

هذه بداية قصة عائلة مسيحية عادت بالذاكرة الى حارة حريك «الضيعة» التي لم يبق منها سوى ذكريات فقط يستعيدها الاب، الام، والخالات في فيلم وثائقي بعنوان «زهر الليمون» من اخراج باميلا غنيمة والذي عرض خلال ليال سينمائية بعنوان «بحثاً عن الضاحية» في هنغار «امم».

نقل الاب حارة حريك الى حديقته، سياجها من عواميد خشب قديمة احضرها من حارته، حتى التراب وشتلات الورود والشجر جاء بها من الحارة ايضاً. اراد ان يحفظ معالم الحارة التي اختفت كلياً الان، في شجر الرمان ودوالي العنب.

الكاميرا تتنقل بين ماضي ابو جوزيف الذي حفظه في حديقته وبين حاضره الذي يتحدث عنه في مركب صيده. يرمي ابو جوزيف في احد مشاهد الفيلم صنارته في البحر، والموج يرفع قاربه وينزله مستذكراً معالم حارة حريك «في ميزة بحارة حريك، ما فيها طلعة ونزلة، متل الكف مسطحة». ينظر الى البحر الذي يخفي معالمه في جوفه يهزّ رأسه متحسراً ويقول «بس انزل عحارة حريك وشوفا مدينة ما بصدق» يتابع «لحد ١٩٧٥ ما كان فيها طابقين، كانت كل البيوت طابق وعسطحا عريشة»، يسحب صنارته ولا تفرحه كثيراً السمكة التي اصطادها ويقول «اذا ما اثرت الحرب بالشكل تؤثر علينا بالذاكرة، بتاريخنا».

يختصر ابو جوزيف علاقته مع حارة حريك انها «صارت مع المدافن» حيث يرقد اباه وجده، فحارة حريك التي عاش وترعرع فيها لم تعد موجودة وشارع رويس الذي كان يحفظ كل حبة تراب فيه لم يعد هو، لذلك لم يعد يحب ان يزورها فحتى بيته «ما بيعرف يوصلو».

الوثائقي الذي يتناول الجانب الانساني لهذه العائلة المسيحية التي هجرت قسراً من حارة حريك، لا يتناول وجود حزب الله في حارة حريك رغم انه السبب الرئيسي في تغيير معالمها، لكن حديث ابو جوزيف في الوثائقي عن الثورة الفلسطينية والتظاهرات التي كان يصدح فيها» على خط النار عاصفة، على جبل النار عاصفة» اوصله للحديث عن حزب الله الذي شكل ظاهرة برأيه» لانو قدر يعمل سيطرة كاملة على الارض وعلى البشر» يفسر وجهة نظره «يعني صار في التزام ديني مش اخلاقي» ويختم «مع العلم انو الاخلاق قبل الدين».

لا تظهر زوجة ابو جوزيف الى جانبه الا في نهاية الفيلم عندما تذهب الى حديقته. ولكنها تستذكر هي واخواتها الثلاث في غرفة صغيرة، تفاصيل البيوت والاحياء في حارة حريك . النساء الاربع يختلفن في وجهات نظرهن فبينما تتحمس احداهن لزيارة الحارة كي تتذكر الاماكن، وتشير في الهواء بإصبعها «هون كنت انطر الاوتوكار، هون كان بيت رفيقتي»، تلوح اختها بكفها في الهواء بسرعة وتقول «ما بحب انزل لانو بنقهر عتاريخنا اللي راح» مع ذلك يجتمعن كلهن على سرد ذكرياتهن الجميلة ووصف حارة حريك بـ«الضيعة».

الفرد الوحيد من هذه العائلة الذي بقي خارج اطار الصورة هو باميلا غنيمة ابنة ابو جوزيف وحارة حريك ومخرجة الوثائقي الذي استوحت اسمه من زهر الليمون الذي كانت تعبق به حارة حريك في الربيع.

تحمست باميلا لتصوير هذا الوثائقي كي تؤكد ان الانسان عندما يتعلق بالارض يتعلق بالحياة، واذا اضطر لترك ارضه يمكنه ان يخلق علاقة جديدة مع الارض التي هجر اليها كـ«جنينة بيي».لهذا كان الفيلم «نفحة امل» وتأكيد كما ترى غنيمة ان بإمكان الانسان «ان يفتش عن بديل» وما يستفزها ليس تغيير سكان حارة حريك «الجدد» لمعالم المنطقة بل «الحرب»، لأن «اهل الجنوب تهجروا متل ما نحنا تهجرنا».

يظهر جلياً في الفيلم ان المخرجة حاولت الابتعاد قدر الامكان عن السياسة وتوجيه التهم والقاء اللوم وهذا تؤكده مراراً فقضيتها «هي العلاقات الانسانية» والتي تراها «اقوى من الشعارات» وحارة حريك بالنسبة لها «هي ذكريات العائلة التي ورثتها ولم تعشها».

عدسة باميلا التي كانت تتحرك في ضاحية بيروت الجنوبية غرست في عيون مشاهدي الفيلم نظرة جديدة لكل صاحب «قضية» بأنه يستطيع ان يحولها الى «نفحة امل». مع فيلم غنيمة عادت حارة حريك تعبق برائحة زهر الليمون حيث عرض الفيلم.